

أولياء مدينة فاس الوسيطة وصلحائها من خلال الأدب المنقبي مقاربة بروسوبوغرافية 'Approche Prosopographique

الدكتورة لمياء لغزوي

عضو فريق العمل في مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية وممثلته في المملكة المغربية

تحرص العديد من مختبرات البحث التاريخي ومراكزه على تطوير مقارباتها المنهجية عند دراستها لمختلف الظواهر التاريخية، ضمن هذا التوجه يعد "مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية"، إحدى المبادرات العلمية الطيبة التي تهدف إلى ترسيخ منهجية البحث التاريخي وتعزيزه بواسطة المنهج الكمي، لذلك يعد المركز بحق نافذة علمية رصينة وجادة تهدف إلى إشاعة ثقافة البحث التاريخي عبر آلية المنهج الكمي في صفوف الباحثين، وهي مبادرة طيبة ستغني حتما رصيدنا المعرفي والمنهجي على مستوى تاريخ العرب وحضارته. وإذا كان المنهج الكمي يسمح بالكشف عن الظواهر التاريخية وسيورتها، فإن مهمة الباحث الأكاديمي هي البحث عن تفسيرات لتلك الحصيلة وتحليلها تحليلًا نوعيًا للرقى بها إلى مستوى التركيب وبالتالي استخراج مبادئ ناظمة تهم القضايا التاريخية المشتركة على مستوى التاريخ العربي.

أسفرت خطوة اهتمامنا العلمي بتاريخ صلحاء مدينة فاس خلال العصر الوسيط، استنادًا على كتب التراجم عامة والمناقب خاصة، عن نتائج هامة جدا سواء عبر تقنين الأحكام الجغرافية تجاه عدد من القضايا التاريخية التي سبق بحثها أو تقييد تعميماتها أو فتح آفاق أرحب للتحليل والمناقشة عبر مقاربة بروسوبوغرافية Approche prosopographique، يعد المنهج الكمي من إحدى آليات أجرأتها لهذه الاعتبارات تم إعداد تقرير مفصل عن أطروحتنا لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة سيدي محمد بن عبد الله ظهر المهرز- فاس، المملكة المغربية، شعبة التاريخ، مركز دراسات الدكتوراه "الجماليات وعلوم الإنسان"، ضمن مختبر "الببليوغرافية التحليلية والتوثيق للتراث المغربي"، بعنوان "الولاية والصلاح بمدينة فاس خلال العصر الوسيط مقاربة بروسوبوغرافية" في ثلاثة أجزاء، تحت إشراف الأستاذ السيد العميد الفاضل الدكتور عبد الإله بنمليح الذي منحني فكرة العمل، وزودني بمنهج علمي رصين، وكان لي شرف العمل في ظل توجيهاته السديدة، فكان بحق مثال التواضع العلمي وحسن المعاملة، أبقاه الله ذخراً لطلبة العلم وجعل ذلك في ميزان حسناته.

تكونت لجنة المناقشة من ثلة من الأساتذة الأفاضل المتمكنين، ممن تمرسوا في البحث العلمي الأكاديمي الرصين، وأسهموا في إرساء دعائمه بالجامعة المغربية، وفي مقدمتهم: الأستاذ الدكتور عبد الإله بنمليح مشرفاً ومقرراً (كلية الآداب، ظهر المهرز، فاس)، والأستاذ الدكتور مولاي علي واحدي رئيساً (كلية الآداب، ظهر المهرز، فاس)، والأستاذ الدكتور محمد المبكر خبيرا (كلية الآداب، ظهر المهرز، فاس)، والأستاذ الدكتور أحمد الأزمي خبيرا (كلية الآداب، ظهر المهرز، فاس)، والأستاذ الدكتور محمد الشريف عضواً (كلية الآداب، تطوان)، والأستاذ الدكتور المصطفى طهر عضواً (كلية الآداب، ظهر المهرز، فاس).

إن الإقدام على البحث في ظاهرة الصلاح والولاية بمدينة فاس الوسيطة، وفق مقاربة منهجية تستند على علم البروسوبوغرافيا، أمر لم يكن بالسهل والهيلين بتاتا، لأن لبنة مشروع الأطروحة قد احتضنت وترعرعت من لدن الدكتور مولاي علي الواحدي مدير ماستر "التراث التاريخي والأثري بالمغرب" 2007-2009، الذي لولاه لما أمكنني بلوغ هذه المرحلة الأكاديمية، لقد يسر لنا سبل

الدراسة بالماستر الذي افتخر به كل الافتخار بحكم طبيعة جودة التكوينات الذي تلقيناها على مستوى المعارف والمناهج والمقاربات، جزاه الله عنا الجزاء الأوفى على كل ما أسدى من نصح وقوم من عوج.

أما أصل إقبالنا على دراسة التاريخ الديني للمغرب الوسيط انطلاقاً من جماعة أهل الفضل والتقوى والصلاح والولاية بناء على المقاربة البروسوبوغرافية التي تتخذ من الأدب المنقبي أداة لرصد تاريخ جماعة أهل الصلاح والولاية بمدينة فاس فيرجع فضل ذلك إلى أستاذين هما: عبد الإله بنمليح ومحمد المبكر، اللذان أكدا بصيغة علمية أن اختيار موضوع البحث في حد ذاته يجب أن يبنين على رافد معرفي من جهة ورافد منهجي من جهة أخرى. وعلى إثر الآمال والتشجيعات التي كان يقدمها الأستاذ محمد المبكر حول ضرورة الاهتمام بالمقاربة البروسوبوغرافية باعتبارها أداة فعالة لتطوير نمطية مقارباتنا للعديد من القضايا التاريخية، خاصة وأن مساهمته القيمة في هذا الموضوع ضمن مجلة أمل الواردة تحت عنوان: "البروسوبوغرافيا في الدراسات التاريخية"¹، سمحت لنا بالإطلاع أكثر على الأهداف والغايات المنشودة من المقاربة البروسوبوغرافية في البحث التاريخي، ليزداد الأمر ترسيخاً في ذهننا حينما أنصت إلى مساهماتي أستاذي المشرف الدكتور عبد الإله بنمليح الأولى تحت عنوان: "شخصية أبي الحسن علي بن حرزهم مقارنة بروسوبوغرافية"، والثانية تحت عنوان: "فقهاء المالكية في المغرب المرابطي وإمكانية المقاربة البروسوبوغرافية"، فكان لي شرف البحث في ظل توجيهاتهم السديدة.

معلوم أن الكتابة التاريخية تنسم بطابع الصرامة أثناء صياغتها للأخبار والوقائع الماضية، فيكون من الواجب أن تتفاعل كل كتابة تاريخية مع الكتابة المنقبية بنوع من الحذر، دون أن ننفي مدى مساهمة الأدب المنقبي عموماً في إغناء المعرفة التاريخية في شتى جوانبها، ولأن للتاريخ وأدب المناقب نقط التقاء وأوجه اختلاف تستدعي خلق انسجام بينهما على أكثر من مستوى شريطة أن تقنن هذه العلاقة ضمن مبدأ ناظم تحدد فيه المنطلقات والمفاهيم.

لقد صار من واجب البحث التاريخي أن يتجاوز فكرة التعامل مع العديد من الوثائق بنظرة متعالية، خصوصاً بالنسبة للوثائق التي لم تكن مخصصة أصلاً للبحث التاريخي، مثل الأدب المنقبي أنموذجاً، لأن هناك "بعداً جوهرياً لا يزال منقوصاً في جزء كبير من البحث التاريخي، وهو "المتخيل"، هذا الحلم الذي لو توصلنا إلى فك روابطه المعقدة ببقية الواقع التاريخي لأدخلنا في أعماق المجتمعات"⁽²⁾. وما دام أن المجال المنقبي يعبر عن عقلية الأفراد داخل المجتمع في مختلف مراحل تطورها، فإنه بموازاة ذلك يستحضر الأطراف النائية، والأرياف، والبسطاء والمهمشين في ظل مواجهته عادة للأفراد المتغلبين بالتجاهل والإقصاء.

إن أساس نظرية الصلاح والولاية هو تخصيص الله سبحانه وتعالى لبعض عباده وتفضيله بعضهم على بعض بما شاء من فضله، وهي فكرة دينية ثابتة، فعلى أي أساس تقوم؟ هل الولاية هي محض اختيار من الله لا دخل لإرادة العبد وعلمه فيه؟ أم هو جزاء عن جهد العبد وإرادته؟ أم أن الأمر قسمة بينهم؟ فمنهم من اجتبه الله بمحض المشيئة، ومنهم من اختصه بجهاده وعلمه؟ أم لا بد من تطابق الاثنين المشيئة الإلهية وجهد العبد حتى تتحقق الولاية للعباد. إقبل التطرق لهذه الأسئلة سنحاول تعريف الولاية التي تحيل على "المحبة، الصداقة، القرابة، الملك، النصر"⁽³⁾، فالولاية إذن تدل على "النصرة والقرب، ثم ما يتصل بها من معانٍ مختلفة كالمحبة والمؤازرة والسلطان وتدبير

1 - محمد المبكر، "البروسوبوغرافيا في الدراسات التاريخية"، بعض القضايا المنهجية لعلوم التاريخ، ندوة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مجلة أمل، ع 15، السنة 5، 24-25 أكتوبر 1997، الدار البيضاء 1998، صص. 7-17.

(2) - جاك لوغوف، "التاريخ الجديد"، التاريخ الجديد، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، (مراجعة، عبد الحميد هنية)، إشراف جاك لوغوف، ط. 1، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص 131.

(3) - عبد الغني أبو العزم، معجم المصطلحات الدينية، د. ط، مؤسسة الغني، الرباط، 2005، ص 182.

الأمر والمتابعة"، غير أنه يظل الحديث عن العباد والزهاد بلفظ الأولياء ضعيف الحصول إذا قيس بالحديث عنهم بلفظ المتصوفة أو الصوفيين، علما أن الحديث عن تفاصيل أحوالهم ينطبق في كثير من الأحيان على الأولياء وعلى ظاهرة الولاية، لأن الولي الصالح حسب صاحب التشوف⁽¹⁾ "هو من أحسن" عبادة ربه وأطاعه في السر وكان غامضا في الناس، لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك" لأن هناك من الأولياء من "يعلم بولايته ويعلم غيره بها، ومنهم من لا يعلم بنفسه ولا يعلم به، ومنهم من يعلم به ولا يعلم هو بنفسه"⁽²⁾. إن "الولاية هي لخاصة المؤمنين وهم الأولياء الصالحون"⁽³⁾. ولكن الخاصة يظل مفهوم مرتبط بدرجات من التعبد التي تؤهل الفرد ليكون صالحا، وهذا المعنى هو الذي يمثل أرقى درجة في الولاية وتميز بالتفرد على مستوى الأحوال من الصوفي الولاية، والولي الصوفي هو من حصلت له الولاية وتميز بالتفرد على مستوى الأحوال من قبض وخوف، ورجاء وبسط إلى التوحد مع الناس على مستوى الأفعال⁽⁴⁾. وعليه يبقى الولي هو من كان همه الله وشغله الله وفناؤه دائما في الله، الشيء الذي يترتب عنه تخصيص لفظ الولاية على ثلاث مراتب: "ولاية عامة وهي لأهل الإيمان والتقوى، وولاية خاصة وهي لأهل الاستشراق على العلم بالله. وولاية خاصة الخاصة وهي لأهل التمكن في معرفة الله"⁽⁵⁾.

يتبين أن حصول الولي على صفة الولاية أمر رهين بالتزامه بعدة صفات خلقية وتعبدية من طاعة وإخلاص وإحسان، فكيف يصبح لفظ الولي مقرونا بلفظ الصلاح؟ في هذا الصدد يقدم صاحب أنس الفقير وعز الحقير⁽⁶⁾ نصا علميا في غاية الأهمية يصرح فيه على "أن من امتثل لأوامر الله تعالى واجتنب نواهيه ورزق الخوف من الله تعالى، لا من خلقه، واجتهد في طاعته جل وعلا، وبحث عن أمر كسبه ووقف عند ما حد له ورجع عن كل ما لا يعلم حكمه فهو الصالح. وأعلى درجة من هذا حصول الورع التام، وترك الطمع وبغض الدنيا وعدم التمسك بها، والفرار من دواعيها ومن أهلها، والقناعة باليسير منها، وتختلف درجات الصالحين بالترقي في ذلك على حسب العناية من الله تعالى في المسالك". يبدو أن النص بما طرحه من أفكار بمثابة حصيلة لمعاينة ومعايشة طويلة لعدد من أولياء المغرب، فالصلاح حسب ابن قنفذ القسنطيني هو صلاح روحي وعملي في الوقت نفسه، بل ويقر بأن ليس كل ولي قد اجتهد صار صالحا وإنما هناك مراتب عدة بغية نيل صفة الصلاح. لذلك سنتيح عملية توظيف الأدب المنقبي وفق مقاربة بروسوبوغرافية إمكانية متابعة السيرورة اليومية لحياة صلحاء مدينة فاس الوسيطية وأوليائها على مستوى ظروف عيشتهم وعلاقاتهم مع محيطهم القريب أو البعيد منهم، وهو ما تترتب عنه الوعي بكون ظاهرتي الصلاح والولاية ليستا مجردتين وإنما هما معيش تاريخي واجتماعي إنساني.

1- المقاربة البروسوبوغرافيا والمنهج الكمي: أدوات البحث وتقنياته

(1) - أبو يعقوب النادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، ط. 2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 22، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997، ص 45.

(2) - ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، نشر وتصحيح محمد الفاسي وأدولف فولن جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة الرحلات 2، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة أكادال، الرباط، 1905، ص 3.

(3) - محمد أدويان، "مفهوم الولاية ومصير الصوفي عند ابن عربي"، ضمن ندوة ابن عربي في أفق ما بعد الحدائث، تنسيق، محمد المصباحي، ط. 1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 107، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003، ص 253.

(4) - نفسه، ص 256-257.

(5) - ابن عجيبة الحسني، مصطلحات التصوف، إعداد وتقديم، عبد الحميد صالح حمدان، ط. 1، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، ص 11.

(6) - ابن قنفذ القسنطيني، نفس المصدر والصفحة.

من الملاحظات التي سجلها الباحث محمد المبكر⁽¹⁾ أثناء رصده لمفهوم البروسوبوغرافيا، الإقرار بصعوبة الإقدام على هذه الخطوة نتيجة اتسام المفهوم في حد ذاته بطابع الغموض على إثر تعدد دلالاته من تخصص إلى آخر، تبعا للتقاليد الوطنية لكل دولة وأيضا وفقا لتعدد المنطلقات الفكرية للباحثين، فمن حيث الاشتقاق اللغوي العتيق للمصطلح تعد البروسوبوغرافيا علم وصف قسامات الوجه⁽²⁾.

تجمع معظم الأدبيات الأكاديمية على ارتباط البحث البروسوبوغرافي عموما بالتاريخ القديم للرومان⁽³⁾، كما يعد علم البروسوبوغرافيا علما مرتبطا بفكرة الجماعة مستقلا بذاته، بعدما كان في السابق علما يرتبط بالأنساب والأعلام والديموغرافية والبيوغرافية، ويرجع تداول مصطلح البروسوبوغرافيا إلى القرن 16م وبالضبط إلى سنة 1577، للتدليل على وصف الأشخاص، ودراسة حياتهم ووظيفتهم خصوصا من الناحية الإدارية والعسكرية والسياسية، لتنتقل المقاربة البروسوبوغرافية فيما بعد إلى الاهتمام بالتاريخ الاجتماعي شريطة إخضاع تلك التفسيرات التاريخية لأدلة مصدرية، وأيضا من خلال عزل سلسلة من الأشخاص الذين لديهم خصائص مشتركة وتحليل كل مؤشرات بناء على معايير تصنيفية معينة، سواء من أجل الحصول على معلومات محددة عن الأفراد أو تحديد الثوابت والمتغيرات على مستوى البيانات.

يعتبر الباحث جون موران (Jean MAURIN)، أن علم البروسوبوغرافيا هو علم دراسة الوثائق بتصوير جديد، خصوصا وأن علم البروسوبوغرافيا ينبنى على تتبع الدراسات المقارنة للسير الذاتية من خلال رصد عناصر الائتلاف والاختلاف على مستوى نمط حياة الأفراد المنتمين إلى فئة اجتماعية معينة بغض النظر عن وضعيتهم السوسيو-اقتصادية داخل المجتمع⁽⁴⁾، كما ترى الباحثة

(1) - محمد المبكر، م.س، ص 8.

(2) - Du grec ancien προσῶπον (*prosōpon*, « personne ») et γραφειν (*graphein*, « écriture »,

Jean Baptiste CASARD et J. B MORIN, dictionnaire étymologique des mots français dérivés du grec, seconde édition, Tome 1, l'imprimerie impériale, Paris, p 415.

(3) - يمكن ملاحظة ذلك من خلال عناوين الأعمال الآتية:

* بالنسبة للتاريخ القديم المرتبط بالمجال الجغرافي الروماني نجد:

- Claude.NICOLET, « Prosopographie et histoire sociale : Rome et l'Italie », année les histoire, sciences sociales. N° 5, volume 25. Année 1970, pp 1209-1228.

- André Chastagnole, « ta prosopographie, méthode de recherche sur l'histoire du bas empire », Ibid, pp 1229-1235.

* دراسة متقدمة في مرحلة العصور القديمة وبداية العصور الوسطى:

- Martin HEINZELMAN, « prosopographie et recherche de continuité historique : l'exemple des Ve VIIe siècles », mélange de l'école française de Rome N° 1, volume 100, année 1988, pp 227-239.

* نموذج دراسة مرتبطة بتاريخ مصر القديم:

- Pierre-Marie CHEVEREAU, Prosopographie des cadres militaires égyptiens de la basse époque, carrières militaires et carrières sacerdotales en Egypte du XIe au IIe siècle avant J.C, ed Cybèle, 1985.

* وقد تطورت طبيعة المواضيع المعالجة بمقاربة بروسوبوغرافية حيث نجد على مستوى التاريخ المعاصر لأوروبا:

- Natalie PETITEAU, « prosopographie et noblesse impériale : de l'histoire d'une élite à l'histoire sociale ». Histoire économie et société, N° 17-2- volume 17, Année 1998, pp 277-285.

- Jean-Marie Mayeur, « une enquête sur le personnel parlementaire sous le troisième république », mélanges de l'école française de Rome. Moyen âge, temps modernes, n° 1, T 100, 1988, pp 175-179.

(4) - « La prosopographie est la recherche des éléments communs et des écarts différentiels présentés par des biographies particulières ». Jean Maurin, « la prosopographie romaine, pertuis et profits », annales histoire sciences sociales, n° 5-6, 37ème année, 1982, p 825.

كيتس روهان (KEATS- ROHAN)⁽¹⁾ أنه على الرغم من تجاذب علم البروسوبوغرافيا عادة لدى بعض الباحثين بين المنظور الجماعي أو الفردي، فإن البروسوبوغرافيا سيرة ذاتية جماعية لعينة معينة داخل المجتمع، وإن كانت هناك صعوبات عديدة لضبط تعريف محدد للعينة المدروسة.

تظل البروسوبوغرافيا أداة من أدوات التاريخ الاجتماعي التي من غايتها الرئيسية إبراز الخصائص المميزة للفئة الاجتماعية قصد الوقوف على ديناميتها الداخلية وممارساتها الجماعية، في إطار علاقتها مع محيطها الاجتماعي، وهذا ما يتيح مقارنة السيرة الذاتية لجميع أعضاء المجموعة من منظور مركب أساسه طبيعة المعايير والمؤشرات التي سمحت لكل فرد أن يندرج في تلك المجموعة، سعياً وراء تحديد طبيعة الثوابت والمتغيرات التي تسمح بجعل الفرد عنصراً ضمن المجموعة⁽²⁾.

على الرغم من نسبية المعايير والمؤشرات التي تسمح بجعل الفرد الواحد عنصراً داخل الجماعة، فإن علم البروسوبوغرافيا يركز على دراسة البيوغرافية الجماعية من منظور "socioprofessionnelles"، أي من منظور يسعى إلى جعل علم البروسوبوغرافيا علماً يسمح بالوعي بكيفية تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع وبأية صيغة تتشكل وتتفاعل أدوار تلك العلاقات ثم تتطور ضمن نسق جماعي.

يتمحور إذن مفهوم البروسوبوغرافيا حول ثلاثة مرتكزات أساسية تتجلى أولاً في تعيين الفئة المدروسة بأشخاصها، ثم ثانياً في رصد أوصافها بناء على معايير معينة تسمح للفرد بأن يصبح عنصراً ضمن الجماعة، أما المرتكز الثالث والأخير الذي تستقيم على أساسه المقاربة البروسوبوغرافية، فهو رهين بطبيعة الأدوار والمهام التي تمارسها الجماعة سواء إن كانت في وضعية فاعلة أو مفعول بها داخل المجتمع خلال فترة زمنية معينة ومكان محدد. لذلك يتم اللجوء على مستوى بنية إعداد مادة العمل إلى "تهيء لائحة العمل بتهيء لائحة أسمائهم مرتبة قدر الإمكان ترتيباً كرونولوجياً. وتكون هذه اللائحة اما مغلقة تتضمن كل الأفراد الذين تتكون منهم المجموعة السفراء، أو ولاية في فترة معينة، مثلاً، وإما مفتوحة في انتظار ظهور معطيات جديدة (مجموعات مهنية أو طائفية مثلاً). وتبقى اللائحة قابلة للتوسيع أو التضييق بتغيير واحد أو أكثر من المقاييس المحددة في البداية"⁽³⁾.

بمجرد تعبئة الجذازات الخاصة بكل فرد على حدة من حيث تاريخ الولادة، وتاريخ الوفاة والزواج، وعدد الأطفال، والأصول الاجتماعية، والوضع الاقتصادي ومصادر الثروة... إلخ، حتى "يتدخل الباحث منذ هذه المرحلة التجميعية لتأويل نقطة غامضة أو اقتراح تاريخ معين أو تصحيح معطيات في نوع من تحقيق للمصادر"⁽⁴⁾، مع البحث عن النقط المشتركة، والخصوصيات الفردية للجماعة المدروسة بناء على المنهج الإحصائي.

ينتقل الباحث مباشرة بعد ذلك إلى مرحلة تتويج الخطوات السابقة بالبحث عن التداخلات والتفاعلات القائمة بين تلك المؤشرات المنفردة وهنا يتلمس القارئ الفائدة العظمى من المقاربة البروسوبوغرافية التي ترقى بالمعلومات المنفردة غير ذات منفعة إلى قيمة نوعية بل وحاسمة في إثبات أو نفي سلوك أو ممارسة ما ترتبط بالفئة الجماعية المدروسة. هذا وتعد المؤشرات المنفردة

(1) – Katharine KEATS-ROHAN, "progress or perversion ? Current Issues in Prosopography: An Introduction", 2003.

<http://users.ox.ac.uk/~prosop/progress-or-perversion.pdf>. 2016-08-10. 12H43.

(2) – Emmanuelle PICARD, "du dossier individuel à la prosopographie en histoire de l'éducation: bilan et problèmes de méthode" Revue administrative, numéro spécial, texte de la communication à la journée d'étude organisée par les archives nationales le 24 octobre 2006, publier février 2007, pp 55-58.

(3) – محمد المبكر، م.س، صص 8-9.

(4) – محمد المبكر، م.س، ص 9.

والمتناثرة العامل الأساسي في تشكيل تيمات معينة تتفاعل فيما بينها ضمن قضايا كبرى تعد أساس البحث الأكاديمي في أي موضوع ما.

تمحورت وسائل العمل حول كل أداة من شأنها أن تسمح بتفكيك واستنتاج وصياغة نظرة تأويلية لمختلف المتون المصدرية التي وجهت مسار وقضايا مشروع الأطروحة، في مقدمتها الأدب المنقبي الذي يعبر عن دينامية قوية للصلحاء والأولياء من حيث المؤشرات التي يتضمنها والمتغيرات التي لا تبرز للوهلة الأولى لقارئ المناقب إلا بعد احتكاكه الطويل معها.

لنتمين المعطيات التي أفرزتها المقاربة البروسوبوغرافية كان لزاما الاعتماد بدرجة أولى على المقاربة الرقمية وبدرجة ثانية على المقاربة الإحصائية بواسطة برنامج إكسيل Excel، كما تم الاستعانة بالبرنامج الإحصائي "Statistical Package for Social Sciences" (1) أي "الحزم الإحصائية للعلوم الاجتماعية" ويسمى اختصارا SPSS، وهي حزم حاسوبية متكاملة لإدخال البيانات وتحليلها، تستخدم عادة في جميع البحوث العلمية التي تشمل العديد من البيانات الرقمية ولا تقتصر على البحوث الاجتماعية فقط بالرغم من أنها أنشئت أصلا لهذا الغرض، ولكن اشتمالها على معظم الاختبارات الإحصائية تقريبا وقدرتها الفائقة في معالجة البيانات وتوافقها مع معظم البرمجيات المشهورة جعل منها أداة فاعلة لتحليل شتى أنواع البحوث العلمية. عموما يمكن إجمال مراحل تحليل البيانات في الخطوات التالية:

- 1- ترميز البيانات.
- 2- إدخال البيانات في برنامج SPSS.
- 3- اختيار الاختبار المناسب، وهذا يعتمد على نوعية النتائج المطلوبة من الاختبار.
- 4- تحديد المتغيرات المراد تحليلها.

يمكن القول إن مشروع الأطروحة هو عينة إحصائية من مجتمع إحصائي، فعينة البحث بالنسبة لهذا المشروع هم صلحاء فاس في المغرب الوسيط، أما عينة المجتمع الإحصائي فيقصد بها صلحاء الغرب الإسلامي ككل. وما هو معمول به علميا الإقدام على تعميم النتائج المتوصل إليها على مجموع الصلحاء، لكن بحكم طبيعة البحث التاريخي فإنه من المتعذر جدا الإقدام على هذه الخطوة لما تتضمنه من مجازفة لا يتم فيها احترام خصوصيات المجال والزمان وما يطرأ منه من تغيرات هامة جدا.

2- المقاربة البروسوبوغرافية في خدمة الأدب المنقبي

يعد الخطاب المنقبي الباحث برصيد لا يستهان به من المعطيات الجزئية التي تتطلب المقارنة والتحقيق وتساعد في مستوى آخر على ملامسة ظواهر ومفاهيم عامة تهم السلطة الثقافية والقيم. نبع الاهتمام بدراسة المصنفات المنقبية للكشف عن تاريخ المتخيل الاجتماعي وعلاقته بالممارسة الاجتماعية ضمن المجال الجغرافي لمدينة فاس أنموذجا انطلاقا من محاولة تكميم المعطيات الواردة بشأن كل سيرة منقبية على حدة وسعيا وراء معالجة مميزات حياة فئة اجتماعية تجسدت في الأولياء والصلحاء، من منطلق قراءة الرموز التي تتضمنها النصوص المنقبية بصيغة لا تخرج عن المعنى ما دامت أنها لا تخلو من فعالية، وتمثل جزءا من الممارسة الاجتماعية ذاتها، فكان لتحقيق هذه

(1) – Sabine.LANDAU and Brian EVERTT, A hand book of Statistical analyses using spss, chapman and hall/crc, London, 2004, ISBN 1-58488-369-3.

http://www.academia.dk/BiologiskAntropologi/Epidemiologi/PDF/SPSS_Statistical_Analyses_using_SPSS.pdf
2015/03/11.13h41.

- Andy FIELD, Discovering Statistics Using SPSS, first Edition, SAGE UK, London, 2000, ISBN 1-84787-906-3.

<https://hoangftu.files.wordpress.com/2014/03/andy-field-discovering-statistics-using-spss-third-edition-2009.pdf>

الغايات الاعتماد على المنهج البروسوبوغرافي بهدف قراءة النصوص المنقبية والكشف عن مادة غير مقصودة في البحث التاريخي سعياً وراء مقارنة الجوانب المخفية منها.

يفصح الخطاب المنقبي عن سير ذاتية تعد مستندات لتوثيق التاريخ الاجتماعي ولم لا التاريخ السوسولوجي- الأنثروبولوجي للأولياء في تفاعلهم مع محيطهم الجغرافي، فسير الصلحاء على اختلاف بنيتها النمطية وحجمها من حيث الطول أو القصر، وفي توجهاتها وأهدافها تظل ذات حضور متميز ومهم ضمن مجموع التراجم⁽¹⁾ لأن المنهج البروسوبوغرافي يضمن حضور تمثيلية كل سيرة على حدة، وهذا ما يجعل الأدب المنقبي من أكثر الإنتاجات الفكرية انسجاماً مع المقاربة البروسوبوغرافية التي تضمن حضور كل سيرة على درجة من المساواة مع بعضها البعض، هذا ويتيح المنهج البروسوبوغرافي إمكانية رصد حياة الأولياء داخل النص المنقبي على أنها سلسلة من التقلبات والمحطات داخل النسيج الحضري والقروي، وإن كانت الكتابة المنقبية تمنح أفضليتها للفضاء المجالي، فإنها بالمقابل تقدم على سحق الزمن الذي لا يبرز إلا بشكل عرضي أو استثنائي⁽²⁾.

تمحورت إشكالية البحث الأساسية حول مدى فاعلية المنهج البروسوبوغرافي في إبراز أهمية تناول موضوع الصلاح والولاية؟ وما هي الكيفية التي طبع بها الأولياء والصلحاء الحياة المغربية عامة ومدينة فاس خاصة، إلى درجة يمكن القول فيها بأن "لا مجتمع بدون صلحاء"؟ فهل شكل صلحاء فاس الوسيطية أقلية محدودة تعيش على ظروف استثنائية؟ هل هذه الفئة الاجتماعية مهمشة أم ذات حضور بارز من خلال ما نلاحظه من كثرة مؤلفي كتب المناقب وتنامي المعتقدين في بعض كراماتهم، أو على الأقل المتعاطفين مع توجههم؟.

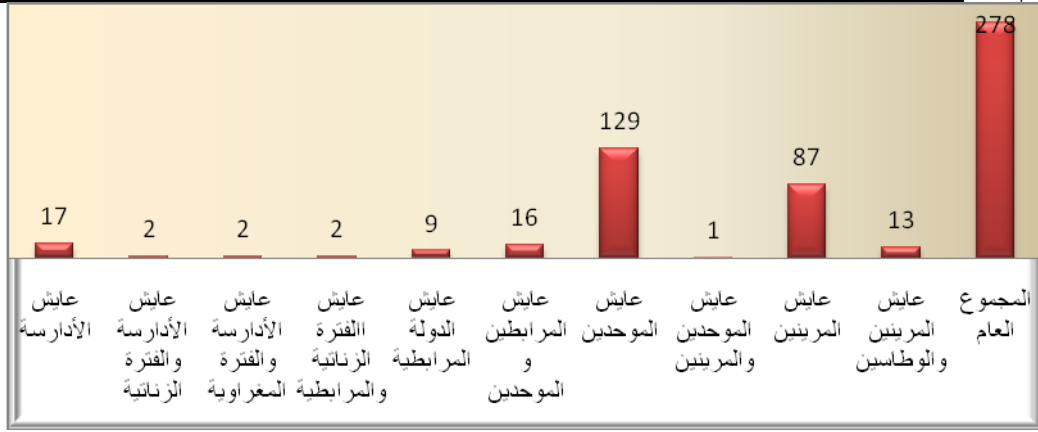
بناء على مجمل تلك الإشكاليات تنبثق أهمية الموضوع من خلال نوعية الإضافات التي ستحرزها المقاربة البروسوبوغرافية لظاهرة الصلاح والولاية، فالمقاربة سمحت بإثارة مواضيع جديدة من قبيل: هيئة الأولياء على المستوى الفيزيولوجي، وخصوصيات ملابسهم، وطبيعة المواد التي يقتاتون عليها، وعلاقتهم بإخوانهم عموماً وأسرتهم الصغيرة خصوصاً. فأهمية المقاربة إذن تتجلى ضمن مستوى أول في تتبع مسار حياة كل فرد صالح، ثم في مستوى ثانٍ تجميع تلك المعلومات المتناثرة عن الأفراد الصلحاء الأولياء للخروج بصورة مركبة عن حياتهم الداخلية والخارجية. من أجل رصد مجالات الترابط بين مجمل فئات المجتمع وتحليل كيفية اشتغالها، خاصة وأنها لا نملك أي وسيلة للإلمام بما يميز الذوات المنفردة خارج إطار شبكة العلاقات التي تربط تلك الذوات بالآخرين.

بناء على حصيلة شبكة العمل- وللإشارة هي شبكة عمل وضعت مرتكزاتها الأولى من لدن الأستاذ المشرف عبد الإله بنمليح والأستاذ محمد المبكر- والتي تم تطوير مضامينها لاحقاً بناء على غنى مؤشرات النصوص المنقبية. إن شبكة العمل تعد بمثابة شروط لانتقاء وحصر التراجم المراد دراستها، لذلك تم تخصيص كل صالح ببطاقة معلوماتية ميزنا فيها بين مستويات تهم الأصل الإثني والجغرافي للصلحاء ونشأتهم وتربيتهم وعلاقتهم مع أسرهم وحركيتهم وطرائق تحصيلهم لعلمي الظاهر والباطن، فشكلت كل استمارة تمت تعبئتها سيرة ونمط حياة خاصة بصالح من صلحاء مدينة فاس الوسيطية، الذين بلغوا ما مجموعه 278 ترجمة، وهي حصيلة تجسدت على النحو الآتي:

(1) - عبد الأحد السبتي، "قضايا في دراسة التاريخيات"، مجلة أمل: بعض القضايا المنهجية لعلوم التاريخ، ع 15، ندوة المجلة المغربية للبحث التاريخي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1998، صص 18-19.

(2) - لطفى عيسى، أخبار المناقب: في المعجزة والكرامة والتاريخ، د.ط، دار سيراس للنشر، تونس، 1993، صص 15-16.

مبيان رقم 1: تمثيلية حضور الأولياء والصلحاء بمدينة فاس خلال العصر الوسيط حسب كل حقبة زمنية



بناء على معطيات المبيان، تشكل الحقبة الموحدية والمرينية أوج الصلاح والولاية بمدينة فاس، لكن المثير للانتباه أن المرحلة الإدريسية تفوق تمثيلية صلحاء المرحلة المرابطية، مما لا يدع مجالاً للشك أن مدينة فاس الإدريسية مارست استقطاباً هاماً للأولياء والصلحاء إلى غاية ما قبل النصف الثاني من القرن 5هـ/11م. فأغلب صلحاء المرحلة الإدريسية نالوا صيتاً تجاوز محيط المدينة، بالمقابل اختلفت تمثيلية حضور صلحاء مدينة فاس بحكم هيمنة الحضور الذكوري على مجموع الحصيلة، باستثناء ترجمتين وحيدتين تتعلقان بالعصر النسوي، ويرتبط الأمر بكل من: ورقا بنت يثان الطليطلية عايشت المرابطين والموحدين/ت بعد 540هـ/ سارة بنت أحمد بن عثمان بن الصلاح الحلبية توفيت على عهد عبد الحق المريني/656-685هـ/.

أما عن خطة البحث فقد تم تحليل المدخل التمهيدي تحت عنوان: الولاية والصلاح بمدينة فاس خلال العصر الوسيط: محاولة تأصيل، في إطار ستة مباحث عبارة عن مداخل تعد بمثابة روافد أساسية توجه الأطروحة، تحمل تارة طابعاً معرفياً وتارة أخرى طابعاً منهجياً. تضمن الباب الأول فاعلية المقاربة البروسوبوغرافية في رصد تحليات-أي الأوصاف التقديرية التي أطلقها أصحاب التراجم على السير المنقبية- صلحاء مدينة فاس وأوليائها خلال العصر الوسيط. أما الباب الثاني فقد اخترنا له عنوان: هوية صلحاء مدينة فاس وأوليائها خلال العصر الوسيط. فرض البحث في هوية الصلحاء تقصي الحياة الشخصية لصلحاء مدينة فاس من ولادتهم وتسميتهم إلى مستوى تنامي صيتهم في الغرب الإسلامي والمشرق العربي. في حين خصص الباب الثالث لدراسة مجتمع صلحاء مدينة فاس وأوليائها خلال العصر الوسيط، عبر رصد علاقة الصالح بالمرأة الزوجة والأبناء على مستوى طبيعة العلاقة التي نسجها الصلحاء مع زوجاتهم وأبنائهم في ظل انشغالهم التعبدي. كما تم توسيع دائرة الاهتمام بالصلحاء من محيطهم الأسروي إلى رصد علاقتهم بجماعة الأفراد والأصحاب والأقران إذ أدى اختلاف أدوارهم وفاعليتهم إلى سيادة نوع من الندية والتنافس من صالح لآخر مما أدى إلى نشوب نوع من التوتر بين الصلحاء من فينة إلى أخرى، دون أن يمنع ذلك من سيادة علاقة التعاون والصحة والاحترام فيما بين الصلحاء وفيما بينهم وبين أفراد المجتمع الفاسي. أما بخصوص الباب الرابع فقد تطرقنا فيه إلى نفوذ صلحاء مدينة فاس وأوليائها خلال العصر الوسيط على المستوى التربوي والتعليمي والسياسي والكرامتي. كما شكلت العلاقة التاريخية بين أهل الصلاح والولاية بمدينة فاس الوسيطية وبين فقهاء أعلام المذهب المالكي قضية مسار يطبعها الاندماج والتوافق، حيث قام الصلحاء بأدوار فعالة من أجل ترسيخ المذهب المالكي وصيانتته وضمان انتشاره، فكانت مدينة فاس بذلك زاوية للتصوف السني ومحراباً للصلحاء والأولياء.

بينما شكل التحالف التاريخي الضمني بين شرفاء مدينة فاس الإدريسية وصلحاءها قضية

توافقية من أجل الإطاحة بالسلطة المرينية في إطار انتفاضة سنة 869هـ، الأمر الذي يعبر ضمنا عن كون سلطة الصلحاء صارت أكثر قوة وفاعلية داخل المجتمع الفاسي على عهد الدولة المرينية، التي وإن نجحت مؤقتا في تعطيل مسار التقارب والتجاوب بين القوتين، فإن الصلحاء رفعوا راية العلم والولاية والشرف باعتبارها إحدى عوامل إتمام هيبتهم وبركتهم، وما التجربة الجوطية إلا دليل على أولى تمظهرات اختزال قضية الشرف من قبل صلحاء مدينة فاس الوسيطية.

أوضحت حصيلة البحث انخراط صلحاء مدينة فاس في إثبات مكانتهم الاجتماعية، عبر آلية المنقبة المتمثلة أساسا في خرق العادة، وقد تمحورت حصيلة فحوى مجمل كرامات الصلحاء أساسا حول إجابة الدعاء والكشف على الخاطر والعلم بحوادث الأمور، فاقترح تيار أهل الصلاح نفسه بديلا لمعالجة مشاكل المجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وهو ما يعكس مدى تغلغل الفكر الصوفي في عقلية المجتمع الفاسية بعامة وخاصة. كما أن الصلحاء الذين تمتعوا بتأثير كرامتي هم صلحاء ينتمون إلى مستوى اجتماعي مرموق، وهي نتيجة طبيعية لأن دعوات الإصلاح لن تنبعث من عناصر قيادية منهزمة ومحدودة الإمكانيات فكريا واجتماعيا واقتصاديا.

1- أبرز النتائج الكمية لقضايا الأطروحة

ارتبطت خلاصات البعد الأول من البحث برصد مميزات الهوية الشخصية لصلحاء مدينة فاس الوسيطية، فتم التوصل إلى أن شهرة الصلحاء باسم أنتروبونيمي ما سواء كان كنية أو لقباً أو أصلاً إثنيا أو جغرافياً، قد تجسد على النحو الآتي:

جدول رقم 1: المؤشرات الأنتروبونيمية لصلحاء مدينة فاس الوسيطية

المؤشرات الأنتروبونيمية	تمثيليتها عدديا
الكنى	162
الألقاب	69
كنية + لقب	45
انتماء قبلي	36
انتماء جغرافي	75

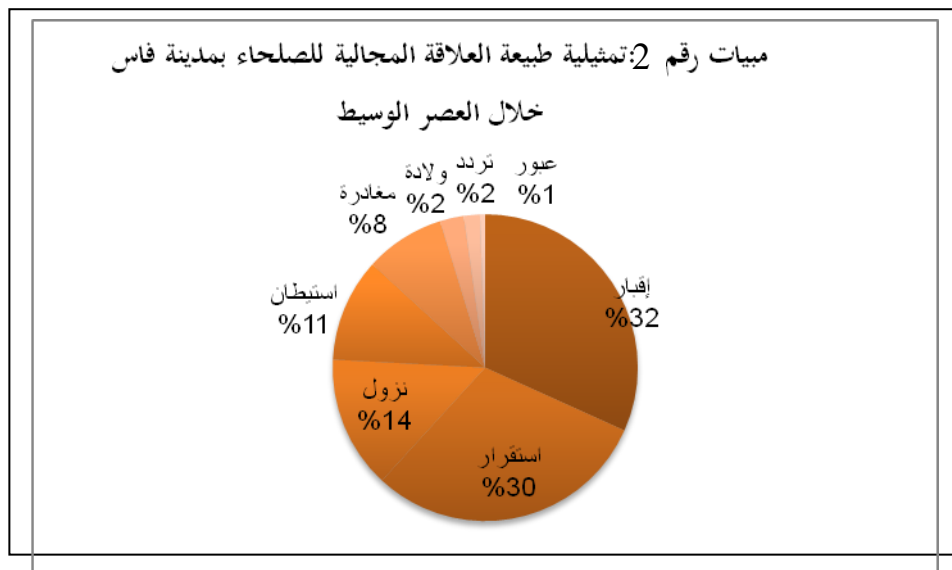
إن دراسة مؤشر كنى صلحاء مدينة فاس من إحدى العناصر التي أفصحت عن شخصيتهم ليس في حدود التعريف بهم بل إلى مستوى ضبط هويتهم ومدى تكريمهم وتعظيمهم ضمن أوساطهم الاجتماعية. كما تنوعت الدلالة المعرفية للألقاب التي حملها الصلحاء، حيث هيمنت عند تحديد ألقابهم ذات طابع مهني صناعي وحرفي من قبيل: الحباك والحرار الأمر الذي يعبر نسبيا عن طبيعة الأصول السوسيو اقتصادية للصلحاء. كما سمحت الألقاب المرتبطة بسحنات الأولياء خاصة السود منهم، برصد مدى إقبال عامة الناس على خوض تجربة الولاية والصلاح ورهانهم عليها من أجل تحسين مكانتهم اجتماعيا. أما مؤشر الاسم النسبي الدال على طبيعة الانتماء الجغرافي والعائلي للصلحاء، فقد ساهم بدوره في الكشف عن سيادة طابع الحركية والتنقل بين مدينة فاس ومجال جغرافي معين.

أما عن طبيعة اهتمامات الصلحاء الوظيفية فقد انصبت حول:

جدول رقم 2: تراتبية وظائف صلحاء مدينة فاس وأولياتها خلال العصر الوسيط

أنواع الوظائف	حصيلتها
وظائف خاصة	14
وظائف إدارية	28
وظائف تحكيمية	47
وظائف تربوية	69
وظائف دينية	148
مجموع الوظائف	306

انخرط صلحاء مدينة فاس الوسيطية في وظائف دينية بعينها مساهمين بقدر كبير في تدبير شؤون المجتمع على المستوى الديني والتربوي، خصوصا حينما تولى عدد هام من صلحاء مدينة فاس منصب الإمامة والخطبة بجامعي القرويين والأندلس، حيث سعوا إلى الاتخاذ من هذين المنصبين بوابة لإجراء تواصل أعمق مع أفراد المجتمع. تميزت أيضا مستويات حركية صلحاء مدينة فاس خلال العصر الوسيط بعدم الاستقرار التام، فكانت على النحو الآتي:



في واقع الأمر تعبر كل حركية مجالية يمارسها الصلحاء عن مسار حياة يمر منه الصالح، كما

تتحكم في هذه الحركية عدة عوامل تفسر طبيعة تلك التراتبية أعلاه والتي اتسمت بحركة دائبة عبر القرون. فعلاقة إقبار الصلحاء واستقرارهم واستيطانهم بالمدينة أمر يعبر ضمنا عن متانة الصلة التي جمعت الصلحاء بمدينة فاس، عكس علاقة عبورهم وترددهم ونزولهم بالمدينة. وقد مكنت الحركية المجالية لصلحاء مدينة فاس الوسيطية في المجالات القريبة أو البعيدة من نيل الصلحاء إشعاعا إما على المستوى المحلي أو الإقليمي أو المغربي أو على مستوى أكبر، وفق الجدول الآتي:

جدول رقم 3: مستويات إشعاع صلحاء مدينة فاس خلال كل مرحلة زمنية

الاجموع العام	المرحلة الوسيطة				مستويات الإشعاع
	الفترة المرينية	الفترة الموحدية	الفترة المرابطية	الفترة الإدريسية	
94	23	67	2	2	محلي
68	28	28	5	7	إقليمي
65	34	22	9	0	مغربي
51	16	20	3	12	أكبر
278	101	137	19	21	الاجموع العام

إن مجمل صلحاء مدينة فاس الإدريسية نالوا إشعاعا أكبر، بحكم سعيهم إلى ترسيخ معالم فكر الصلاح والولاية بالمدينة، بينما حظي صلحاء فاس المرابطية بإشعاع مغربي إقليمي، على إثر سعيهم إلى خلق تلاقح بين تجاربهم الروحية وتجارب محيطهم الإقليمي والمغربي. في حين اكتسح صلحاء فاس الموحدية صيتا على المستوى المحلي على إثر نضج فكر الصلاح والولاية بمدينة فاس الموحدية وترسخه بها إلى أن صارت مجالا حيويا لاستقطاب الصلحاء والأولياء من مختلف الأقطار. بالمقابل سمحت الخصوصيات التاريخية للمرحلة المرينية بنيل الصلحاء إشعاعا على المستوى المغربي فالإقليمي على إثر شهرة أعيان الصلاح بالانفتاح على رموز السلطة الزمنية التي عملت جاهدة على احتوائهم.

في حين عبرت نتائج البعد الاجتماعي من قضايا الأطروحة عن مدى تفاعل أهل الصلاح والولاية بمدينة فاس الوسيطية مع محيطهم الاجتماعي، حيث سعى العديد من الصلحاء إلى تبني أسلوب حياة زوجية قائم على المودة والرحمة، خصوصا وأن نظرة التقدير والاحترام للمرأة الصالحة ليست نابعة فقط مما قامت به من أدوار اجتماعية وإنسانية تجاه المجتمع فحسب، بل هي نظرة مرتبطة بذهنية مجتمع الغرب الإسلامي ككل وهيئته من رجال ونساء الصلاح والولاية بشكل عام. أسفرت المقاربة البروسوبوغرافية لأخبار الصلحاء على مستوى علاقتهم بمحيطهم الأسروي عن نتائج جد متباينة بخصوص وضعهم العائلي، وهي على النحو الآتي:

جدول رقم 4: الوضعية العائلية لصلحاء وأولياء مدينة فاس خلال العصر الوسيط

الوضعية العائلية	تمثيلتها	النسبة المئوية
------------------	----------	----------------

23.38	65	متزوج
76.62	213	مجهولة
100	278	المجموع العام

جدول رقم 5: خصوبة صلحاء وأولياء مدينة فاس خلال العصر الوسيط

النسبة المئوية	تمثيلته	الوضع العائلي
75.39	49	متزوج + أطفال
24.61	16	متزوج + بدون أطفال
100	65	المجموع

بخصوص الصلحاء والأولياء المتزوجين تم التوصل فقط إلى 65 صالحاً من أصل 278 ترجمة تمت الإشارة إلى زواجها. أما بخصوص مؤشر خصوبة هؤلاء الصلحاء فقد تم التوصل إلى أنه من أصل 65 صالح متزوج هناك 49 صالحاً تم الإخبار عن أبنائهم مقابل 16 صالحاً تم إهمال مصيرهم. كما سمحت النصوص المنقوبة بتحديد جنس أبناء الصلحاء حيث يمكن توزيع حصيلة 49 صالحاً متزوجاً ولديه أبناء على النحو الآتي:

جدول رقم 6: جنس أبناء صلحاء وأولياء مدينة فاس خلال العصر الوسيط

الطبيعية الجنسية للأبناء	تمثيلية طبيعتهم
الذكور	38
الإناث	4
صمت	7
المجموع	49

يتضح بناء على معطيات الجدول أن هناك هيمنة كبيرة للأبناء الذكور على الإناث، وهو ما يعكس بشكل جلي أن الخطاب المنقبي ذو طابع ذكوري بامتياز. أما علاقة الصلحاء بأبنائهم فقد ارتكزت على تبني مبدأ الصحبة مع حرص عدد من الصلحاء على استمرار صفة العلم والصلاح والهيبة والبركة في عقب البيت، بالمقابل هناك من الصلحاء من لم يكثرث لأمر أبنائه ولم يشارك إطلاقاً في تربيتهم.

لقد واجهت إعداد البحث عدة حدود تعاملنا معها بنوع من الحذر، فعلى المستوى المنهجي لا يجب أن تؤخذ النتائج المتوصل إليها على أنها مسلمت نهائية لأنها تظل فقط أنموذجاً للدراسة وبحاجة إلى إجراء قراءة بروسوبوغرافية تهم موضوع الصلاح والولاية على مستوى أزمنة وأمكنة أخرى بغية تعميم النتائج والتوصل إلى مبدأ ناظم لها على مستوى تاريخ الصلاح والولاية

بالغرب الإسلامي ككل. أما حدود البحث على المستوى المعرفي فقد ارتبطت باختفاء تفاصيل المعيش والذاكرة وراء المحاسن، مما ترتب عنه عدم امتلاك أجوبة حاسمة للعديد من قضايا البحث. بينما تمحورت آفاق البحث في العمل حول وعينا الشديد بعدم ثبات المعرفة التاريخية، ليس وفق الانتماء والاعتقاد والإيديولوجيات فحسب، وإنما أيضا وفق مقاربات علمية جديدة صار على أساسها العمل البروسوبوغرافي حاجة ملحة وليس أمرا عابرا، فإن لم تمنح المقاربة نتائج حاسمة فهي على الأقل ستقدم فرضيات جديدة تعيد النظر فيما سبق بحثه .

وختاما، أود أن أجدد شكري العميق إلى جميع أساتذتي بكلية الآداب ظهر المهرارز - فاس، كما أنه لم يكن لهذا العمل أن ينجز لولا مساندة ومساعدة أناس كثيرين، أرشدوني بعلمهم الواسع في مجال اللغة والمنهج والتصوير وغمروني بدعمهم المعنوي وتشجيعهم.